الموقف الخبّابي

١٨/ ٧/ ١٤٣٧هـ

في يوم من أيـام مكة المكرمة الشـهيرة بحرارة شمسـها، والملتهبة بسياطها التي أدمت ظهور المؤمنين المستضعفين، في أيام مشحونة بالأذى المتتابـع على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء خباب بن الأرتّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو من قدماء الصحابة إسـلامًا، ومن أشـدّهم تعرّضًا للأذى- إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقي من المشركين شدّة، فقال: يا رسول الله، ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمرّ وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشـارُ على مفرق رأسـه، فيُشـق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسـير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمه**»[1].

هذا الموقف (الخبّابي)، وهذه النفس المشحونةُ بأنواعٍ من الألم النفسي بل والجسدي، تتكرر صورتها في واقعنا وبألوانٍ مختلفة، ومشاهد متنوعة، تلتقي عند همٍّ رسـالي، ومقصدٍ إيماني شريـف، وحدَبٍ على هذا الدين،

(١) رواه البخاري (رقم٣٨٥٢).

والضيقِ ذرعًا باشتداد الغربة، واستحكامها في بعض الأزمنة والأماكن، فيأتي الجوابُ النبوي المليءُ بالسكينة واليقين، والمحشون بتفاؤل يبدّد غيومَ اليأس التي علت قامةَ خباب الكبيرة، لا ليخبره بأن أمَدَ هذا الأذى سيتوقف، بل ليُقسم له -وهو الصادق البارُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأن هذا الدين الذي يحاصَر في شعاب مكّة المكرمة، ويتسلط صناديدُ الكفر على ضَعَفة أهله؛ سينتشر انتشارًا يبلغ من أثره أن يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت -وهي مناطق يتيه فيها الذكي، ويخاف فيها القوي-، لا يخشى شيئًا سوى الله الذي اختار هذا الدين الخاتم، والذئبَ على غنمه!

إنه التفاؤل يا أحبّة، في شدة اليأس، وصعوبة الأحوال المحيطة بالإنسان، إنها كلمات تقول لكل محزون وبائس: الدين دينُ الله، والله حافظُه، بل ومتكفلٌ بنشره؛ فابحث لك عن موطئ قدَمٍ في نصرته: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

إن هذا الموقف النبوي، ليؤكد حاجةَ الأمة إلى ذلك العالم الذي لا تهزّه رياحُ الأحداث، ولا تفُتّ في عضده المتغيرات التي ظاهرها الشر، بل لا يزداد بها إلا بصيرةً ويقينًا بصدق موعود الله، كما قال سلف هذه الأمة، في غزوةٍ من أصعب الغزوات النبوية: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

ما أحوج الأمّة إلى أولئك العلماء الربانيين، الذين إذا جاءَهم الناسُ وجدوا فيهم من اليقين والثقة ما يبدّد قلقَهم، وأذكر ههنا شاهدَين من شواهد التاريخ، أحدهما كنتُ شاهدًا عليه:

الأول: ما ذكره ابنُ القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «وعَلِمَ الله، ما رأيتُ أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرّهم نفسًا، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوفُ، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض؛ أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامَه، فيذهب ذلك كلُّه، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة»[1]، ومن قرأ ما سطّره ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن غزو التتار، وما نقله تلميذُه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أدرك شيئًا من عظمة هذه النفس في زمن الشدائد، وما كانت عليه من التفاؤل واليقين بنصر الله، في لحظات عصيبة، تُشبه ما مرّ بالمسلمين يوم الأحزاب.

الثاني: ما كان عليه سماحة شيخنا الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأشهد بالله أنه كان من أعظم الناس صبرًا، وأكثرهم فألًا ويقينًا، وكان كالبحر الخضم، لا تكدّره الخطوب، ولا تُثني عزمَه الحوادثُ على شدتها، ولا يزداد بذلك إلا بصيرة، وكان دائمَ الحث على العمل لهذا الدين، والدعوة إلى بذل كل جهد ممكن في نصرته، يترجم ذلك قولًا وعملًا.

إن نبرة اليأس إذا كانت غير مستغربة من عامة المسلمين؛ فلا يصحّ أبدًا أن يسري هذا الداء إلى أهل العلم على اختلاف مستوياتهم، مهما كانت الظروف، تأمل قوله تعالى في وصية يعقوب لبنيه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] «فالمؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله» كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويضيف معلقًا على سورة يوسف: «وهذه السورة تضمنت ذكر

(١) الوابل الصيب (ص٤٨).

المستيئسين، وأن الفرح جاءهم بعد ذلك؛ لئلا ييأس المؤمن؛ ولهذا فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]...، ومن المعلوم أن الله إذا وعد الرسلَ والمؤمنين بنصرٍ مطلق- كما هو غالب إخباراته- لم يقيِّد زمانَه ولا مكانَه ولا سنتَه ولا صفتَه»[1]. والخوف -والله- هو من تقصيرنا في نصر دينه، وإلا فالأمر كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والحق منصورٌ وممتحن فلا
تعجب فهذي سنة الرحمن

وبذاك يظهر حزبُه من حزبِه
ولأجل ذاك الناسُ طائفتان

اللهم، املأ قلوبنا ثقة بك، وتوكلًا عليك، واجعلنا من أنصار دينك، ومن حملة شريعتك.

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٨٤).